الدكتاتورية وفردوس الثقافة العراقية المفقود

التدجين الثقافي وجيل الستينيات

يعد المثقف المتفاعل غير المتكيف صاحب الحضور الثقافي المكثف، والمنتج للثقافة خارج الارتزاق، والعصامي والدؤوب في البحث عن الحقيقة والسمو على الواقع المشوه الذي لا يتناسب مع طموحاته، من المؤثرين كذات مبدعة في العمليات الفكرية والاجتماعية التي لابد ان تتطور ضمن المفهوم العام للتطور الديناميكي، وان تأثيره الايجابي يدفعه الى ان يعمل على تصحيح الظروف التي تساهم في تشكيل عدمية الفكر والثقافة او اغتراب المثقف في فترة ما، على الرغم من ان الاغتراب مرتبط، تاريخيا وفلسفيا، بنشوء قلق المجتمع والذات مع وجود اسباب اخرى لتعميمه. وبالتاكيد، فان هذا الدور الايجابي يشمل المثقف الستيني المنتج للثقافة، كذلك مثقفي الاجيال الاخرى من غير مثقفي السلطة في العراق.

د. فاضل سوداني

ان عملية تكييف الشعب العراقي بدأت منذ الستينيات، وخضعت لوسائل و دراسات استراتيجية وسيكولوجية على الراي العام مدفوعة الثمن قامت بها مؤسسات عالمية، وخاصة مؤسسات بعض الدول الاشتراكية السابقة التي كانت مهمتها مساعدة وتثبيت النظام العراقي وفرض سياسته على شعبه من خلال تدجينه خدمة لاستثماراتها.

ومنذ البداية وضع النظام السابق في حساباته شتى المغريات لتدجين المثقف العراقي للتمرد من جيل الستينيات وتحويله الى مثقف متكيف، لان النظام كان يفتقر الى المثقفين عموما. الا ان المثقفين كانوا يتوجسون منه، فانقلاب شباط الدموي مازال في الذاكرة، ومازالت دماء الكثير من الابرياء والبريئات الذين ماتوا طرية. وقد كانت هذه مشكلة كبرى امام النظام انذاك فحين لم يستطع كسب الكوادر الثقافية البارزة عمد الى سياسة العنف والعزل بجانب الاغراء للوصول الى هدفه.

ونتيجة لحساسية المثقف الستيني الفكرية والسياسية المبكرة وقف، منذ البداية، ضد جميع انواع الوصايا الفوقية، سواء الاجتماعية منها او الفكرية او السياسية، وكذلك وقف ضد تقنين الابداع في اطر قد لا تتناسب مع تمرده الواعي وطموحه الابداعي. ولهذا السبب، فانه جيل متمرد وقف ضد التكييف الابداعي او التكيف مع برامج السلطة الاستثنائية وعدها خيانة وخداعا للذات الحقيقية، عندما تحتم هذه السياسة الثقافية تفضيل النظرة القومية - الشوفينية الضيقة على الرؤية الانسانية الشمولية، وتحويل قدرة الوعي والتوجه الفكري من التعمق ودراسة الشاكل الاجتماعية والذاتية الجوهرية الى تمثل المفاهيم التي تشيء الانسان وفكره وتشوه الذات، فيتحول المثقف من ذاتي مبدع ومتفرد الى كائن ثانوي متكيف وغارق في الروح الارتزاقية البائسة، فيصبح المثقف له آلة في لهرم الذي يقف في قمته العقل الدكتاتوري - الفاشي الذي يلغي التفرد ويفرض الانتماء الى الجماعة التي تحرص ثقافة الحزب الواحد والنظام الشمولي ان تجعلها قطيعاً يردد فقط تلك المفاهيم والاهداف والشعارات التي تمجد الدكتاتورية والعنف والحرب، وتشجع الانغمار بالاوهام التاريخية.

ولهذا، فان مشروعية تمرد جيل الستينيات الثقافي حتم رفض التكيف مع النظام معتمداً على تماسك الذات وبنائها خارج الارتزاق الفكري، ومحاولته الانغمار في الستحيل الابداعي والحصانة الداخلية التي يكتسبها من خلال استيعاب المعارف الجديدة والحساسية الذاتية لرؤية الواقع على حقيقته ومن ثم رفضه.

ان هوس الاطلاع على المعرفة بشموليتها هي محاولة للوصول بالابداع الى اقصى درجات ابعاده الحرة، والجرأة في الكشف عن السكوت عنه والانغمار في المحرام والممنوع الذي يشكل خطورة الثقافة العربية الرسيمة ونفوراً من المثقفين المحافظين.

لقد عمد المثقف الستيني الى رفض كل ما هو سلفي وابتعد عن ضيق الافق الابداعي من اجل التجاوز للمستقبلي والطموح العنيد لخلق على اكثر المفاهيم والنظريات الثقافية والفلسفات المعاصرة المتناقضة، كالماركسية والوجودية والعبثية والسريالية وتيارات الفكر الحداثي الابداعي التي خلقت آفاقاً جديدة للحداثة في ادب وثقافة الجيل الستيني (ومن بعده الاجيال الاخرى)، الذي يتباهى بأنه جيل عاق لتراثه الثقافي العربي الكلاسيكي السلفي.

وفي خضم العداء الذي يشيعه السياسي الاستثنائي وبمعيته مثقفه التكيفي الرتزق، ومحاربته من جميع الاحزاب السياسية الاخرى وتحجيم آفاق التفكير الحرة، كان جيل الستينيات يبحث عن فردوسه المفقود خارج تلك الابخرة الوبوءة. وبالرغم من ان مثقفي الستينيات كانوا قد تميزوا بالحس الشعري للعبث، فان هذا اضفى على سلوكهم وابداعهم سمة التشاؤم كميزة للتمرد الواعي (بتأثير رامبو وفرلين ولوتريامون والفرد فيني والسرياليين) فدفعهم هذا الى حمل صليب الذات المعرفية وانعكس في ابداعهم المبني على القلق الداخلي المبكر، الذي هو قلق الابداع المتفرد مما سيؤثر على مستقبل الثقافية العراقية.

لذلك، تشكل وعي ثقافة جيل الستينيات (اضافة الى كل ما سبق) من مؤثرات كثيرة اهمها:

-الثورة الثقافية التي عمت اوربا في ستينيات القرن الماضي واتسمت بالتمرد على كل شيء.

-ترجمات الادب والثقافة الاوربية المعاصرة وخاصة الفكر الوجودي والفن الطليعي الصيدة النثر

-الرغبة في التمرد على النظرة السلفية للثقافة العربية والتزام يسار الفكر الثوري من اجل تغيير الواقع العربي كرد فعل للهزائم والانتكاسات التي عانى منها الانسان العربي بسبب الانظمة السياسية. لذلك فان الكثير منهم التزم يسار الماركسية كالتجربة الجيفارية والماوية.

-الطموح السريالي لخلق ثورة ادبية حرة وثقافة جديدة تقطع الصلة بالماضي والتراث العربي. ويعود هذا التأكيد الى روح التمرد والعبث الذي تميز به الجيل الستيني في تلك المرحلة سلوكاً وثقافة.

-الفلسفة الماركسية من جانب والتزام الفكر القومي من جانب آخر.

ان الوعي السياسي للانسان العراقي واتساع الرؤية الابداعية المتوجهة للمثقف للتمرد المنجوتة ليس فقط من التجارب النضالية والفكرية والمحلية والعربية وخاصة اتجاهات التراث العربي والتقدمي والتصوفي- الاسلامي، وانما استشراف التجارب الفكرية العالمية ومحاولة تطبيقها في الواقع العراقي خلق لدى المثقف اتساع الرؤية وصلابة الموقف ولكن في بلد مثل العراق تكون القاعدة استثناء، اذ المفارقة تكمن في الغاء القاعدة وتعميم الاستثناء. لذلك (عندما تتحول الاكذوبة الى نظام شامل، لن يكون هنالك سوى الاشباح)، على نحو ما يقول فاضل العزاوي. ويقين فاضل العزاوي هذا فيه الكثير من الدقة، فهو تشخيص دقيق للمرحلة التي فرضت فيها ب القائد وامتدت الى جميع جوانب العراقية، وتعميم لحياة العسكرتارية والسلوك الخابر اتي في شتى مجالات العمل والحياة وجعلها ظاهرة طبيعية، ومحاولة إزالة الكره السايكولوجي التاريخي بين المواطن العراقي ورجل الامن (فجندت لها تمثيليات تلفزيونية، مثل تلك التي كتبها كتاب ومؤلفون تكيفوا سريعاً مع النظام ونسوا تاريخهم وعذابات شعبهم)، فانبثقت مهمة ضابط امن الدائرة كوظيفة مقبولة في مؤسسات النظام في جميع محافظات العراق، فرضت شمولية النظام وأدت الى تخريب الوعي بأساليب العنف لتهيئة المجتمع العراقي الى مرحلة تخريبية أكبر، اعني الحروب التدميرية اللامجدية التي كانت غريبة على حياة الشعب العراقي، لكنها اصبحت جزء أمن يومياته بعد حين (حيث كتبت الكثير من المسرحيات والروايات والقصائد الليونية، هدفها تدجين العراقي حتى يقبل الحرب كقدر لا مفر منه). وسيؤثر هذا على مستقبل الشعب العراقي عندما يصبح مصيره في كفتي الميزان، حيث يدخل ضمن مخططات ومراهنات النظام التوسعية وعقده العسكرية، وضمن خطط النافيا الدولية، ليصبح جسر ألعبور الى الاهداف الستراتيجية للرأسمال العالمي في منطقة الشرق الاوسط. في ذلك الوقت كانت المعارضة العراقية غارقة في حسابات اخرى، وفي كيفية الحصول على المكاسب الأنية اللامجدية التي سيتفضل بها النظام الشعب او الحياة السياسية لانه سرعان ما سيلغيها متى يشاء. ونفذ كل شيء بانسيابية ومباركة من جميع الفصائل الرئيسة للشعب، الذي كان يلاقي كل التحولات السياسية بلا اهتمام لكثرة الشعارات والخدع التي مورست لاستغلاله في العهود السابقة، فبرزت من جديد تلك المقولات ولحكم البالية واصبحت هي التي تثير موقف العراقي مثل (اللي يزوج أمنا يصير عمنا) او (ما عليك، إمشي بحذاء الحايط) أو (أني شعليه) وغيرها الكثير (التي تحتاج الى دراسة معاصرة من قبل المختصين وعلماء الاجتماع لكونها انعكاساً للواقع النفسي والسايكولوجي في المجتمع العراقي). وهذه المقولات التخديرية جلبت الويلات ودفعت بالشعب العراقي الى التزام اللامبالاة، فغط في نومة الفجر لهنية على السطوح، يحلم بشربة ماء بارد من (التنكة) وبطيخة باردة تنتظره على (التيغة)، والطموح في الحصول على كارتون من البيض او معجون الطماطم. في ذلك الوقت، لم يكلف احد نفسه، من المعارضة او المثقفين الآخرين، إيقاظ النائم على هذا الحلم المهني. والذين حاولوا لم يسمعهم احد بسبب الخوف من كاتم الصوت من جانب والغريات التي بذلها النظام بسبب الموارد الهائلة التي حصل عليها من تأميم النفط من جانب آخر. وسيعمد النظام الى نهب ارزاق ومدخرات العراقيين واجبارهم على التبرع ذهباً الى حرب القادسية واحتلال الكويت.

اليسار العراقي المعاصر، خلاص الإنفتاح أم تشوش الوعي؟ (1-4)

نقد الإشتراكية بين الضرورة والموضة

ماركس

لينين

اورويل

عارف معروف

يذكر الكاتب اليوناني نيكوس كازنتزاكي في سيرته الذاتية (الطريق الى غريكو) أنه لن ينسى ما عاش حماقة ارتكبها ذات مرة عندما أخرج فراشة من شرنقتها حينما رآها وهو صبي، تعالج امر الشرنقة ببطء في بدء محاولتها للخروج والتحرر كي يسرع عملية ولادتها ويخفف من معاناتها وكيف انها سرعان ما اضطربت بعد لحظات وارتعشت في النور وماتت. يتساءل البعض فيما إذا كانت روسيا اكتوبر هي الأخرى يرقة أخرجت من شرنقتها قبل الأوان بغية تسريع الاستحالة وبدافع ذاتي تجاوز قوانين الطبيعة واحكامها، مما نتج عنه لاحقاً ما اعتور تلك التجربة من تخبط ثم إخفاق وانهيار، محتجين بأن كل الحسابات (ماركسياً) ما كانت تفترض خروج روسيا من شرنقة الاستحالة الطبيعية، وانما مجتمعات أوربا الغربية هي التي كانت أقرب إلى النور، فلماذا عاكس الإنسان الطبيعة، وهل على الطبيعة مراجعة قوانينها، أم على الإنسان أن يعيد أمر حساباته؟

في حين يحاجج البعض في أن (ثورة البروليتاريا) قد أجهضت أو وئدت في المهد، منذ السنوات الأولى، وإنها قد دحرت برحيل لينين وتسيّد ستالين، الذي لم يكن إلا التمثيل الشخصي للنسغ البيروقراطي الصاعد، الذي سيحيل ثمار الشجرة إلى رماد، بعيداً عن شخصنة الشكل بتضخيم مقولة (الديمقراطية الاجتماعية) والتهامها لتوأمها المفترض في الاشتراكية لحلم: الديمقراطية السياسية. ويذهب آخرون إلى أن الرأسمالية، وإن تغيرت صيغة الملك الخاص إلى ملك عام أو ملك دولة، بقيت طالما بقي الانتاج البضاعي، وإن سادة فائض القيمة الجدد، الذين حلوا محل الرأسماليين، كانوا البيروقراطيين وقادة الحزب. ويردّ آخرون التعثر والفشل إلى لحصار العالمي والحرب الإمبريالية والتآمر الكوني لعقود من السنين، ذاك الذي استنزف كل موارد وقابليات الاشتراكية الوليدة وقادها بالحتم إلى المركزية والبيروقراطية ثم السقوط، وثمة من يقول بأن الأمر كله نتج عن مؤامرة مخابراتية وبأيدي عملاء من قادة الشيوعية الرسميين حطمت كل شيء بضربة محكمة. هذا كله في جانب من حلبة الصراع، أما في الجانب الآخر فثمة من اعتبر ويعتبر الأمر كله رؤية ذاتية أصلاً غالطت الواقع الموضوعي ومغامرة مثالية مجهولة العواقب وشذوذاً وركوباً في مركب الخطأ والجهل ومعاكسة لمنطق الأشياء، فلا طبقة عاملة ولا طبقات، وإنها مجرد أوهام وتسميات ذاتية، وإن فائض القيمة نفسه خطأ نظري وتضليل أيديولوجي يراد به التحريض، وإن لا نصيب لكل ذلك من الصدق أو إن التجربة دوافعها في أفضل الأحوال ما كانت سوى حلم أو رغبة طفولية تحطمت على صخرة الواقع ومحاولة فرناسية للطير ان فوق القوانين الأزلية سرعان ما أذابت شمس لحقيقة شمعها وفتت أجنحتها فتهاوت في يم الصحيح الذي لا يصح سواه، وانتهى كل شيء إلى غير رجعة. كل هذه الأسئلة وكل هذه الاعتراضات والشكوك هي تعاطي (إيجابي) بمعنى ما، يعيق للعرفة الإنسانية. والحوار أو لحجاج يصلي تلك للعرفة كل يوم نار احامية فيصلب عودها ويصقل ماسها ويقربها خطوات ما باتجاه التمثل لحق لمعطيات الواقع، وينطوي حتماً على بذور أو أجنحة الاحسن أو الأصلح فيفيد من جوانب التجربة الإنسانية بهدف تجاوز للظلم وتعزيز للضيء. بمعنى آخر: إنه تحقيق لدور الواقع والممارسة إزاء النظرية أو الفكرة من إغناء وتطوير أو إسقاط وتجاوز.

ومهما كان من أمر، فالفشل أبو الراجعة، والأسئلة ليست دائماً حيرة، والقلق ليس عاراً، والبحث والتدقيق ليس جعلاً. إن الأسئلة ما زالت أم الفلسفة، والقلق والد الطمأنينة، كما إن الشك طريق اليقين. إن فشل وانهيار تجربة رأسمالية الدولة الاشتراكية في روسيا وتوابعها يوفر للباحثين والمهتمين بالمسألة الاجتماعية ومحاولة التمكن منها أو مقاربتها فرصة إضافية للفهم لم تتوفر قبل عقود من السنين لأمثالهم ومعطيات (مختبرية) كثيرة ومهمة لهم يفيد منها من كان في إطار التجربة، تشغله تفاصيلها وممارساتها فلا يرى الغابة بسبب من الأشجار، أو من كان خارجها يرى أنها انحراف عن المطلوب أو مغامرة مثالية في المجهول أو شذوذ فعل مغاير للطبيعة أو مجرد حلم زائف..

لم يصدر كل النقد الذي وجه إلى منظومة رأسمالية الدولة الاشتراكية في روسيا وتوابعها خلال عقود عديدة منصرمة قبل انهيارها من الأعداء فقط، بل صدر بعضه، وفي لحقيقة الأهم والأعمق منه، عن (رفاق الطريق)، أي الاشتراكيين والشيوعيين والثوريين الذين كانوا يرون في الفكر والممارسة مثالب لا تغتفر وتنكب عن الطريق السليم في عرفهم. كما لم يكن جل ما وجه من هذا النقد سياسياً أو دعائياً، بل كان بعضه أعمالاً دقيقة اتصفت بطابع البحوث العلمية الأصيلة وحملت من البرهنة والتوقعات الشيء الكثير. كما وجد هذا النقد انعكاسات له في الأدب والفن وباقي وجوه النشاط الفكري الإنساني.

ومنذ تروتسكي حتى بداية العقد التاسع من القرن العشرين، ثمة الكثير من الأسماء والإشارات والأعمال. وعلى سبيل المثال لا الحصر، تمثل أعمال جورج اورويل الأدبية الصادرة في الأربعينيات من القرن الماضي، مثل (مزرعة الحيوان) و (1984) ستقراءً أدبياً وتكثيفاً بالصورة والحدث وحدساً دقيقاً لما ستكون عليه الشمولية وبنى الانحراف، لكن القمع والديماغوجية كانا حاسمين، وسيف الاتهام كان مشرعاً، وفي ذلك الوقت، أو على نحو أدق فيما بعد، لم تعد أوساط اليسار العربي والعراقي أصوات احتجاج هنا وإشارات امتعاض هناك، بل تبلور البعض منها في تأسيسات وارهاصات ببدائل كانت في أساس بعض الانشقاقات والاحتجاجات. ومعظم ذلك كان أصيلاً ومخلصاً وصادراً عن نوايا نزيهة واستعدادات للتضحية بلا حدود. ولم يكن انهيار منظومة رأسمالية الدولة الاشتراكية مفاجئاً لهذا البعض، بل ربما كان مصداقاً لتنبوءاته وتوقفاً مع حدسه ودافعاً ليس للاحباط أو الهزيمة بل إلى النظر بجدية في مسائل التأصيل والتطوير والتجاوز.

ومثما لم يكن هذا الانهيار مفاجئاً له، كان حدثاً مروعاً لغيره وكارثة أذنت بيوم الدينونة، فاختلطت لديه الصور وانهارت الحسابات وتفتت اليقين، ولم يعد العلم سوى وهم، ولم يبق من المنطق سوى الهزل.

وكما يحصل في أعقاب كل هزيمة او إحباط كبير، آثر البعض الراجعة والتنقيح بقصد المعالجة والمواءمة، وآخى البعض بين الصيف والشتاء لينعم بربيع موهوم، وتخلى البعض لاعناً (العلم والعلميين والروس واليابانيين والناس أجمعين)، وهام البعض على وجهه في فيافي الفكر ومفاوز الثقافة، فوجد في نتاجات ايديولوجية (العولمة) لجديدة، بلسماً او في الرأسمالية بديلاً أبدياً، او في منطقة ما بين الفلسفة والدين متكأ ومراحاً.

وإذا أضفنا إلى ذلك، بالنسبة للعرب والعراقيين، ضغط ظروفهم الموضوعية لهائل، وخصوصاً ما عاناه العراقيون من غربة ومنفى وشتات وقمع لا يوصف خلال عقود من السنين، لا يعود من الغريب علينا أن نرى بعض ما رأينا أو نسمع بعض ما سمعنا، لكن الغريب كل الغرابة أن يبلغ الشطط والاندحار كل مبلغ، فيتحول في تجاهه (180) درجة، كما يقال في لغة الهندسة، وهو يرفع عقيرته جهاراً نهاراً ودون خجل أو وجل، فتقر أبعد انهيار روسيا وفي دورية من الدوريات (الشيوعية) إن ثورة اكتوبر كانت مؤامرة يهودية بعد أن كانت (قبلة الثوار) وتقر أعين لينين (العظيم) أنه كان عميلاً للمخابرات الألمانية مردداً ما دأب بعض الإعلام الغربي ومدارسه الأكثر فجاجة عقوداً على ترديده، ويتحول عنده فهم صراع الضواري الرأسماليين وما كان يسميه (بالتضامن الأممي) و (مسعى تحريرياً) الى سخافات لجيوبوليتيكس، ومنها سخافة حلم القياصرة وطموح الروس الأبدي الى أن يضعوا أقدامهم في المياه الدافئة، ورأينا كيف تحول البعض، خلال بضع سنين، من إقرار نتائج مؤتمرات وتوصيات وتحليلات ووصايا الروس كمسلمات نهائية لا يأتيها الباطل من جانب إلى بيوسترويكا غورباتشوف، مطنبين في الحديث عن الإصلاح والشفافية أكثر مما فعل هو نفسه. أما بعد انهيار روسيا وتوابعها، تحول منهجهم إلى مقالات مضحكة مبكية، من امتلاك لحقيقة للطلقة والتمكن من الماركسية، (أم العراقه) بحسب الشاعر الخالد مظفر النواب، الى ليبرالية وعقلانيين جداً وكارهين للايديولوجيا ولاعنين للفكرة السبقة، لا يتحدثون عن معرفة، بل (مقاربة)، ولا ينطلقون في تناولهم لأمر من رأي، بل من (زعم)، بل، قرأنا أخيراً ألشيخ مؤرخ من العرب من ذات الواصفات إعادة اكتشافه لماركس وانجلس كشخصين بذيئين، أو على الأقل، متهورين مندفعين، ملقيا باللوم على الترجمات القديمة التي لم تكن أمينة في إبراز طبيعة اللغة التي تحدثا بها ومفرداتها الحقة؟

ليس العيب أن يكتشف الشيوعي أن الشيوعية وهم وابتذال، فيتراجع عنها بالحجة والبرهان أو حتى بمجرد الرغبة والقناعة، أو يؤمن الليبرالي بالليبرالية طريقاً للبناء السياسي فيدعو اليها ويقيم على صحتها الدلائل وينضم اليه في ذلك من ناصبه العداء والحاجة ردحاً من الزمن، أو يرى الرأسمالي في الرأسمالية طريقاً زكته الحياة في البناء والتطور الاجتماعي، فالحياة تقتضي ذلك التنوع وهذا الاختلاف، لكن العيب كل العيب في أن يتحول الإنسان أو الجماعة من حال إلى نقيض، وهو في الحالين مؤمن، أيديولوجي، نهائي، أو غائي، فالأيديولوجي ليس الشيوعي ولا القومي أو التدين الشمولي فقط، بل أيضاً الليبرالي أو الرأسمالي الذي يرى في الرأسمالية أو الليبرالية أو آلية السوق أو التجارة الحرة علاجات شافية كافية لأدواء البشرية أو حقائق شاملة ونهائية أو غايات مطلقة يسعى إليها التاريخ البشري.

إن كل دعاة النهائية والغائية، بغض النظر عن ألوانهم، ينتهون إلى مواقف (إيمانية) تتجاوز الواقع وإمكاناته وثرائه وصيرورته لصالح نمط نهائي موهوم، غائي أو غير غائي.

لقد حدد الإعلام الغربي، منذ زمن طويل وعبر ماكنته الضخمة وقدراته المالية والعلمية والنفسية الهائلة، المادة الخبرية التي يتلقاها الناس في كل مكان وأولوياتها، صاغ من خلالها الاهتمامات، حدد أطر التفكير والوعي، فدائماً ثمة صراع أو حدث معين.. وباء، مرض، اكتشاف، أزمة، هي التي تحظى بالأولوية والاهتمام وتثير الرعب أو الغضب أو التعاطف أو التفاؤل أو التشاؤم، بغض النظر عن مدى أهميتها أو أولويتها الفعلية. لكن الأمر لا يتوقف عند صياغة الخبر وتحديد الاهتمام اليومي، بل تعداه إلى الفكر والعلم وتحديد أسس وأطر ومناهج المعرفة والإيحاء بموضوعات الاهتمام حتى على صعيد المعرفة العلمية (المجردة). ونرى تبعاً لذلك، وفي عالمنا المتخلف الشوه، انعكاساً بل تطابقاً وترديداً ليس لموضوعات الإعلام الغربي فقط، وإنما تأطر أضمن (القوالب) للطلوبة، سواء أكانت (علمية) أو (فكرية) أو (سياسية) أو (تاريخية) أو (فلسفية) وصولاً إلى مفردات اللغة الخاصة بأي من هذه المباحث، التي نرى أنها تتغير وفقاً للموضة المطلوبة كثيراً وسريعاً. غير أن فعل الموضة لا يتوقف على الأزياء حسب، بل يتعداه إلى الفكر والثقافة والسياسة واللغة، فإذا كانت بعض الظواهر والتيارات السياسية والثقافية تملك أساساً واقعياً وتبريراً اجتماعياً أو ثقافياً في المجتمعات الغربية، فإنها غالباً ما تجدلها انعكاساً وصدى، لا يتجاوز السطح من حيث العمق والتأثير في البنى الاجتماعية المتخلفة أو التابعة أو الهجينة. لا يتجاوز السطح من حيث العمق والتأثير في البنى الاجتماعية المتخلفة أو التابعة أو الهجينة، وإذا كانت بعض هذه الظاهر في الفن أو الثقافة أو الأزياء قد وجدت انعكاساً متطرفاً وتقليداً فجاً أكثر من الأصل في هذه البنى وبصورة تؤكد التخلف والزيف وانعدام الأصالة والاتباع أكثر مما تنفيه، فإن هياج نقد الاشتراكية ولعن الاقتصاد الوجه أو المخطط، بل التخلي عن كل ما يمت إلى النظر إلى الملكية الخاصة باعتبار جانب وظيفتها الاجتماعية والدعوة التي تبنى كل ما يصدر عن مدارس الفكر الغربي الرائج -الأمريكي منه تحديداً دون قيد أو شرط- وهوس ورطانة (المجتمع المدني) ومؤسساته دون فهم أو إيمان أو ممارسة حقيقية بهذا الحماس والانفعال، لا يتعدى لدى قطاعات واسعة أثر وانفعال الموضة.

فإبان صعود الشيوعية راج الفكر الاشتراكي باعتباره لحل (الشامل) لكل ما تعاني منه البشرية من أدواء، واندفعت في تيار اليسار قوى كثيرة مختلفة، وأصبحت كلمة (الاشتراكية) مفردة شعبية رائجة تتردد على كل لسان، وفقرة لازمة في برامج الأحزاب والقوى السياسية في العالم (الثالث) عموماً وفي الوطن العربي خصوصاً، كانت الاشتراكية واليسار موضة كل شيء، ولهج بها لجميع من ركبان البدو في صحراء العرب حتى مثقفو القاهي والجامعات، من القوى الغالبة في العصرنة حتى القوى الدينية، وأضحى الكل يتحدث عن فلسفة مادية وفكر اشتراكي أممي أو عربي وشعر اشتراكي وعلم جمال اشتراكي ومسرح طليعي واشتراكي... الخ.

هل صدر ذلك عن عمق ما؟ هل كان مؤسساً على قناعات مكينة؟ ما إن أفل نجم الشيوعية على وقع النموذج الذي كان سائداً في روسيا وتوابعها حتى أصبحت كل هذه المفردات (سبة) ولغواً أيديولوجياً معادياً للعلم، وأصبح من يريد أن يحظى بـ(احترام) علمي أن يتحاشى استعمال مثل هذه المفردات، ويبدو أكثر تزاناً بتحفظاته إن اضطر إلى مقاربتها، وراجت بدلاً من ذلك مفردات (الليبرالية) و (آلية السوق) و (العولمة) و (التجارة الحرة) و (الخصخصة) و (التداولية) و (التعددية) و (اللانظرية) و (اللاإرادية)... الخ. والأمر في الحالين موضة. والموضة، هنا، انعكاس زائف وادعائي للموضة هناك. وليس أمر أبلا دلالة أن يكون تأثير انهيار منظومة رأسمالية الدولة الاشتراكية في روسيا وتوابعها كبير أو مؤذياً على الحركة (الاشتراكية واليسارية) في العالم الثالث عموماً والوطن العربي تحديداً، دون أن يكون له نفس الأذى أو التأثير على النظمات والحركات والتيارات الشابهة في العالم الصناعي أو الغربي.

لقد مخرت سفن الفضاء عباب المجموعة الشمسية ونزلت مركبات الإنسان الباحثة والنقية والفاحصة على سطح المريخ والزهرة والمشتري، ناهيك عن القمر الذي مشى الإنسان على سطحه، لكن الهتمين والدارسين ما زالوا يرون في جول فيرن صاحب رواية (رحلة القمر) رائداً في هذا الميدان برغم أنه روائي وليس بعالم وكانت روايته من نسج الخيال، لكن مأثرته أنه أشار إلى ممكن حينما لم يكن أحد يجرؤ على التفكير به كحلم، ولقد تطور الطيران كثيراً وفاقت سرعاته ما كان متصوراً وقطع المسافات بين القارات في دقائق معدودات، وما زالت طائرة الأخوين رايت التي لم ترتفع إلا بضعة أقدام ولم تقطع إلا بضعة أمتار تعتبر هي الأساس و(أم) الطيران لحديث كله، وحينما نزل الإنسان على القمر وحينما تفحصت مختبرات الأرض حجارة المريخ لم (يشتم) أحد جول فيرن أو يسفه رحلته، كذلك حينما فاقت سرعات الطائرات الحديثة سرعة الصوت بأضعاف لم يعلن أحد الأخوين رايت أو ينال منهما بكلمة نابية، الأمر ليس مات الملك عاش الملك، الأمر أمر علم وممارسة ومعرفة متدرجة، متعرجة، متراجعة، لكنها صاعدة أبداً ومعمقة باستمرار، وهكذا الحال في العلم الاجتماعي والفلسفة وعلم النفس. إن الانبهار بالمفردة الجديدة وشتم كل ما سبق وتكفير كل ما مضى بداوة ليست من التحضر في شيء، بداوة تركض خلف الموضة بوعي زائف.